

الأضرحة ببجاية

- دراسة غوذجية-

أ. عبد الكريم عزوق
معهد الآثار - جامعة الجزائر

المحتوى

- موقع بجاية:

- لمحة تاريخية عن بجاية في العصر الإسلامي.
- التعريف اللغوي والاصطلاحي للضريح.
- أصل الأضرحة وتطورها في العصر الإسلامي.

- أنواع الأضرحة:

- الأضرحة ببجاية.
- دراسة نماذج من الأضرحة ببجاية.
- ضريح سيدي التواني.
- ضريح سيدي محمد أمقران.
- ضريح سيدي عبد الرحمن الصباغ.
- ضريح سيدي أبي علي.
- ضريح سيدي عيسى.

موقع بجاية:

اسم بجاية كان معروفا منذ أقدم العصور حيث كانت تعرف في العصر الروماني باسم (صالدای) (saldae)⁽¹⁾ ، حيث تقع على سفح جبل، وجاء ذكره في المصادر التاريخية إذ كان يسمى (أمسيون)⁽²⁾ وبجاية هي مدينة ساحلية تقع على بعد 236 كم شرق العاصمة بالمنحدرات السفلية لجبل قوراية على خط طول 5,9° شرق غريتش، وخط عرض 36,49° شمال خط الاستواء، وهي بذلك تحتل مكانا وسطا بين الجزائر العاصمة وقسنطينة وتوجد بساحلها الشمالي الشرقي ثلاثة رؤوس ساحلية وهي: رأس بوحاي" في الوسط ورأس بوك" في الجنوب والرأس المثقوب في الشمال.

يحد بجاية من الجنوب هضبة وادي الصومام، ومن الغرب جبل قورايا وارتفاعه 672م التابع للسلسلة الشرقية للأطلس التلي، ومن أهم أودية بجاية واد الصومام وهو دائم الجريان، أما عن مناخ المنطقة فهو معتدل.

لحة تاريخية عن بجاية في العصر الإسلامي:

كان لموقع بجاية الساحلي الحصين، ومرفأها الطبيعي، أثرا في ظهور عدة حضارات متنوعة جعلت استراتيجيتها غنية تاريخيا وهذا منذ أقدم العصور، ولذلك سنحاول التطرق إلى أوسع حقبة تاريخية عرفتتها المدينة وهي العصر الإسلامي الذي أثر فينا تأثيرا عميقا، وصنع شخصيتنا المعاصرة.

جاء تأسيس بجاية من طرف الناصر بن علناس الحمادي في سنة 460هـ / 1067م وذلك بعد رحيل الحماديين من القلعة، حيث قام بإحاطة المدينة بسور، وشيد قصر اللؤلؤة، ومباني ضخمة وسماها "الناصرية" وتألقت سمعتها في عهد الحماديين، وعرفت عمرانها لا مثيل له، وفي عهد المنصور أتم بناء قصر اللؤلؤة الذي يعد من أعجب القصور في الدنيا كما بنى قصر النجمة وقصر أميمون، وبنى المسجد الجامع⁽³⁾. وفي عهد المنصور أيضا عرفت بجاية الاستقرار والرفاهية،

واشتهرت بعلمائها وبنائها⁽⁴⁾. وكانت ببجاية في العصر الحمادي داراً لصناعة السفن من كل الأنواع، وكان يجلب الخشب من الأماكن المجاورة لها، ولقد وصف الإدريسي المدينة في عصره حيث قال: "إن مدينة ببجاية في وقتنا هذا هي مدينة المغرب الأوسط، والسفن إليها مقلعة، ولها القوافل متجهة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، مياسير، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان بكثرة، والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد.⁽⁵⁾

وكان للمدينة آنذاك كثيرا من الأبواب، اندثر بعضها ولم يبق إلا بابان هما: باب البحر وباب البنود. ومن هذه الأبواب نذكر: باب أمسيون، وباب المرسى الذي يحتمل أن يكون في منطقة بريجة السفلى، وباب البنود الذي يقع في الجانب الشمالي الغربي، وكان المدخل الرئيسي للمدينة⁽⁶⁾. بالإضافة إلى باب اللوز الذي اقتحم منه بنو غانية القصبية، ثم باب البحر يفتح مباشرة على البحر، حيث كان المدخل الرئيسي للسفن القادمة من البحر، وكذلك باب الجديد وباب الدباغين.⁽⁷⁾

ولقد أعطى البلنسي في كتابه (الرحلة المغربية) وصفا رائعا ومفصلا للمدينة حيث قال: "...وهي مدينة كبيرة، حصينة، منيعة، شهيرة، برية وبحرية، سنية سرية وثيقة البنين... رفيعة المباني، غريبة المعاني، موضوعة في أسفل جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما لإشراف الطليعة... فلا مطعم فيها لمحارب، ولا متسع فيها لطاعن وضارب، ولها جامع عجيب..."⁽⁸⁾.

ونظرا لهذه الأهمية الكبيرة للمدينة والازدهار الذي بلغته في عهد بني حماد، نجد أن بابا روما (كريكووار السابع) كان يتودد للناصر ويكاتبه مكاتبات يلاطفه فيها ويوصيه خيرا برعاياه من النصارى⁽⁹⁾.

وبعد قدوم الحملة الموحدية وعلى رأسها عبد المؤمن بن علي سنة 546هـ/1298م، وكان الصراع قائما عليها ما بين بني عبد الواد من تلمسان الذين حاصروها سنة 1310م، 1318م، 1319م، والمرينيين الذين دخلوها سنة 746هـ⁽¹²⁾.

وفي ظل الحكم الحفصي، تمكن أمراؤها عدة مرات من التحرر من سلطان تونس، وجعلوا من بجاية عاصمة لولاية مستقلة، وتمكنوا من صد هجمات بني عبد الواد والمرينيين.

وأثناء الاحتلال الاسباني حاول عروج عدة مرات اقتكاكها منهم خاصة سنة 1513م⁽¹³⁾، لكنه لم يتمكن من ذلك إلى أن قام بعده صالح رايس سنة 1555م من تحرير المدينة وأصبحت بجاية تابعة لبابليك الشرق منذ عام 1567م.⁽¹⁴⁾

وهنا لابد أن نسجل أن مدينة بجاية عاشت خلال العهد العثماني فترة تتسم بالعقم الثقافي والانكماش الحضاري الذي يلاحظ على مستوى الإنتاج الفكري المفقود خلال هذه الفترة الطويلة، وأخذ مجدها العلمي ينمحي جيلا بعد جيل دون أن يترك أي أثر.⁽¹⁵⁾

التعريف اللغوي والاصطلاحي للضريح:

الضريح لغة كلمة مشتقة من فعل ضرح، وهو بمعنى القبر حفره أو شقه، ويقال للميت حفر له ضريحاً، والجمع أضرحة، وهي المبنى الذي يقام على قبر الميت⁽¹⁶⁾. أما اصطلاحاً فهو المكان الذي يدفن فيه ولي صالح أو سلطان أو شخصية، ولقد طُغلت عليه عدة مصطلحات، فاللفظ الشائع الذي يطلق على هذا النوع من المباني هو "القبّة"، وهي من المظاهر الملفتة للنظر في العمارة الإسلامية، وهذا العنصر موروث عن الساسانيين والبيزنطيين، ثم ظهرت لتغطي الغرف المربعة والمستديرة للأضرحة، وأطلق الجزء عن الكل وأصبح يسمى بها الضريح كله.⁽¹⁷⁾ ويسمى أيضاً بـ "التربة" والمقصود بها المبنى الضريحي الذي يقام على راس الميت،

وأستعمل هذا المصطلح عند الأتراك، أما عن تخطيطه فهو دائري مغطى بسقف مخروطي أو قبة، وينسب هذا الشكل إلى الأبراج الجنائزية التي أدخلت إلى الأناضول وفارس على يد الشعوب التركية التي كانت تقطن آسيا الوسطى فجلبوا معهم تقاليدهم الجنائزية⁽¹⁸⁾.

وأطلق عليه أيضا مصطلح "مشهد" وكان في بعض الأحيان يوضع عليه نصب تذكاري على هيئة شاهد قبر، كما أطلق مصطلح "مزار" نسبة إلى الزيارة، ومصطلح "إمام زاد" أو "شاه زاد" ومصطلح "مقام" خاصة في البلاد العربية وفي المغرب أستعملت كلمة "مربوط" للدلالة على المدفن⁽¹⁹⁾.

أصل الأضرحة وتطورها في العصر الإسلامي:

تعددت أساليب بناء القبور منذ فترة ما قبل التاريخ، حيث وجدت مدافن على شكل مسكن، وهي عبارة عن مناضد حجرية تتكون من عدة غرف، وأشكال أخرى عبارة عن مغارات في الصخور وفي العمارة المصرية ظهرت عمارة الأهرامات والمصاطب، ونفس الفكرة ظهرت في حضارة وادي الرافدين، وفي العصر الإغريقي ظهرت عمارة المعابد، وفي العصر الروماني ظهرت بعض الأنواع من الأضرحة عبارة عن أقبية تحت الأرض، ثم المقابر التذكارية المستديرة ثم الأضرحة الهرمية⁽²⁰⁾.

أما في العصر الإسلامي، فإن أقدم ضريح أقيمت عليه قبة يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هجري 9 ميلادي وذلك في قبة الصليبية في سامراء بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة، ثم يأتي ضريح إسماعيل السمانى المبني عام 296هـ/970م في مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام علي بالنجف الذي بناه الحمدانيون 317هـ ثم ضريح محمد بن موسى في مدينة "قم" بإيران عام 366هـ، ثم ضريح سبع بنات في "الفسطاط" سنة 400هـ⁽²¹⁾.

أما في بلاد المغرب، فقد وجدت مجموعة كبيرة من الأضرحة على قبور الأولياء

والعلماء والمتصوفين والحكماء، لكن أغلب هذه الأضرحة مجهولة التأسيس⁽²²⁾.

أما عن التصميم المعماري لهذه الأضرحة، فقد اتخذ الشكل التقليدي المعروف، وهو مربع فوقه قبة، على واجهاته الأربع فتحات عبارة عن عقود، وأستعمل هذا التخطيط لأول مرة في (باليرمو Palermo) بصقلية.⁽²³⁾

وفي بعض الأضرحة الأخرى، يوجد صحن ذي بوائك يمتد أمام حجرة القبر، كما هو الحال في أضرحة بني مرين وبني زيان بتلمسان، مثل ضريح سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم كأحسن مثال على ذلك.

وقد عرفت الجزائر هذا النوع من العمائر حيث انتشرت على كامل التراب الوطني، والملاحظ أنها تكثر كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب.

ولقد أسهم الجنرال (كوفي CAUVET) في محاولة لدراسة الأضرحة في شمال إفريقيا أفادتنا ببعض التفاصيل البسيطة حول الأضرحة، حيث أشار إلى كثرتها في شمال إفريقيا، وقال عنها أنها بنايات جنازية صغيرة ومقببة، وذات أشكال متعددة ومحلية حسب كل منطقة، حيث أشار إلى أن بمنطقة وهران وحدها أكثر من مائتي ضريح أو قبة تحمل اسم سيدي عبد الرحمن الجيلاني.⁽²⁴⁾

أنواع الأضرحة:

لقد وضع الجنرال (كوفي CAUVET) تقسيما للأضرحة على النحو التالي:

- أضرحة ذات قباب نصف كروية.
- أضرحة عبارة عن أكواخ صغيرة، إما مغطاة بسقف مسطح أو بسقف يعلوه قرميد.
- أضرحة ذات قباب مغطاة بقرميد.
- أضرحة ذات قباب مخروطية.
- أضرحة هرمية الشكل بدون شرفات وهو تأثير مغربي أندلسي بدأ انتشاره منذ بداية القرن 12⁽²⁵⁾.

ورغم تنوع الأضرحة بالتقسيم الذي سبق ذكره إلا أن النوع الشائع في الجزائر والأقدم هو الأضرحة المربعة ذات قباب نصف كروية محمولة على منطقة انتقال ثمنة الشكل، وفي بعض الأحيان لا نجد منطقة انتقال، ويظهر لنا الضريح على شكل مربع توضع فوقه القبة مباشرة⁽²⁶⁾.

الأضرحة ببجاية:

إن دراسة الأضرحة ببجاية يهدف إلى محاولة الوقوف على القيمة التاريخية والأثرية وحتى الاجتماعية للأضرحة والمزارات بصفتها معالم حضارية، كما تهدف أيضا الدراسة إلى الكشف عن أهميتها المعمارية والفنية وبعض أصولها. والحديث عن بجاية يدفعنا حتما إلى الحديث عن الأضرحة وولاتها الصالحين، وما تحمله هذه الأمكنة من معان ورموز بالنسبة للمجتمع البجاوي، الذي يكثر من زيارة هذه الأضرحة. ولقد كثر الحديث عن دور هذه الأضرحة في حماية المدينة.

والجدير بالملاحظة أن بجاية كان يطلق عليها اسم "مكة الصغيرة" وعرفت تسعة وتسعين وليا صالحا، ويقال أنه لو زاد وليا آخر لأصبحت أرضا مقدسة، كما أن العدد الكبير من هذه الأضرحة قد اندثر ولا نعرف لهم أثرا ما عدا بعض الإشارات في ثنايا الكتب التاريخية التي تحدثت عن بجاية كما يجب أيضا أن نتساءل عن العدد الكبير والحضور القوي لهذه الأضرحة في هذه المنطقة ولماذا أبقى الاستعمار الفرنسي وجود هذه الأضرحة على خلاف المساجد والقصور وبقية المباني التي هدمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ؟

المعروف أن أزهى عصر مرت به المدينة هو العصر الإسلامي التي ما تزال بعض آثاره شامخة متحدية الإهمال والنسيان، كما عرفت المدينة الكثير من العلماء والفقهاء طلبا للعلم والزهد، وهناك من استقر بها، حتى أن الغريبي أحمد أبو العباس أفرد مؤلفا لعلماء ببجاية في القرن 7هـ/13م حيث أعطى فيه حوالي مائة ترجمة لعلماء وفقهاء ببجاية خلال ذلك العهد.

والملاحظ أيضا أن معظم الأضرحة التي نجدها قائمة في بجاية، تظهر في مواقع مرتفعة أي في أعلى الربوات والتلال والمضارب، بحيث يمكن مشاهدتها في نقاط مختلفة من المدينة. ويبدو أن أصحاب هذه الأضرحة قد اختاروا مواقعها بعيدا عن صخب المدينة، وليتسنى لهم التبعد بعيدا عن الحياة الاجتماعية التي تتطلب المعاشرة والاختلاط، كما تعطي هذه الأضرحة هبة للمدينة.

ومن الأضرحة التي كان لها دورا هاما في مسيرة بجاية الحضارية والثقافية، نذكر بعضها ومنها: ضريح سيدي معمر، سيدي عبد الحق، سيدي صوفي، سيدي الأخضر، سيدي محمد أمقران، سيدي والي، سيدي عبد الرحمان الصباغ، سيدي البتروني، سيدي محمد تواتي، سيدي عيسى، سيدي يحيى أبي زكريا وغيرها...، ويبدو أن الاستعمار الفرنسي قد وجد في هذه الأضرحة والمزارات فرصة لترويج الأساطير والخرافات مستغلا بذلك أمية وسذاجة المجتمع لإبعادهم عن المواقع الإستراتيجية وعدم مهاجمتها، هذا ونشير إلى أن العديد من هذه الأضرحة كان عبارة عن معاهد تدرس فيها مختلف العلوم، خاصة معهد سيدي تواتي، وسيدي محمد أمقران في العهد العثماني، كما أدت دورا كبيرا في محاربة المد الصليبي والفكر الاستعماري الفرنسي مثل الزوايا التي كانت منتشرة في حوض الصومام، والجزائر ككل.

دراسة نماذج من الأضرحة ببجاية:

ضريح سيدي تواتي:

الموقع:

يمثل الضريح جزءا من المدرسة التي وجدت في العهد الحمادي خلال القرن 5هـ/11م⁽²⁷⁾. ويقع في شمال غرب باب البحر على هضبة مرتفعة تشرف على مدينة بجاية وساحلها أسفل جبل قورايا. وتحيط به الأشجار، مما أعطاه منظرا متميزا وخصوصا.

أما عن سيدي محمد التواقي، فهي شخصية دينية كانت تحيا في عالم من التقشف والزهد، وهو الذي أسس الزاوية، وحدث أن اصططحبه معه الناصر مرة في البحر ليرى جمال المدينة، وهي تظهر كأنها لؤلؤة، ولكن على العكس من ذلك كان سيدي تواقي يحذره بأن كل هذه المباني ستصبح يوما آثارا وغبارا، ومن كراماته أنه رفع دعوة إلهية ليقنع مولاه ببرهان خارق للعادة، حيث نزع عباءته ونشرها أمام السلطان مخفيا عنه منظر بجاية عبر هذا الحاجز الشفاف، ليرى الناصر الأرض تتبعثر فيها الآثار وكل الأبنية المتألقة قد اختفت، مما جعل الناصر متأثرا وكأنه مجنون عقليا وتخلّى عن الحكم لابنه المنصور، ثم اختفى ليظهر بعد أربع سنوات في مكان منعزل شمال قورايا وهو نصف عار وبقي في هذا المكان إلى أن مات فوق صخرته (28).

ويعتقد بأن الناصر هو الذي أنشأ معهد سيدي تواقي ليدرس فيه التعليم الجامعي، وكان يحوي على ثلاثة آلاف طالب يدرسون كل المواد بما في ذلك العلوم الفلكية. ويروى أنه خلال ملتقى علمي ألفت طالبة محاضرة حول " بروج الشمس " دامت ثلاثة أيام وذلك أمام مجموعة من العلماء الأجانب (29).

الوصف المعماري:

يتخذ الضريح شكلا مربعا طول ضلعه يصل إلى 3.51 م، ويتربع على مساحة 12.32 م²، أما ارتفاعه فيبلغ حوالي 3.25 م، وللضريح أربع واجهات، يبلغ ارتفاع كل منها 2.90 م وجدرانه من الخارج ملساء، أما لونه فيبدو مستحداً مما يدل على العناية به من طرف الزوار (صورة 1 وشكل 1).

تقع الواجهة الشرقية التي يتخللها المدخل جهة الشرق (صورة 2)، ويبلغ عرض المدخل 0.71م، وارتفاعه 01.88م، يتوجه عقدا مدببا عرضه 70سم، وارتفاعه 1.15م، كما توجد على الواجهة الرئيسية زخرفة على شكل نجمة وهلال (شكل 2) وبجوار المدخل توجد نافذتان إحداها مسدودة والأخرى مفتوحة ويعلو دراسات تراثية العدد 01، 2007

كل نافذة عقد مدبب، وفي الواجهة الشمالية للضريح توجد أيضا فئحتان يعلوها عقد مدبب، وذلك للإضافة والسماح بمرور التيار الهوائي. ويعلو سطح الضريح قبة مركزية ملساء تذكرنا بقباب الأضرحة المنتشرة في شمال إفريقيا.

أما من الداخل، فالضريح بسيط في عمارته، فالمدخل يؤدي إلى غرفة مربعة أبعادها 3.31م، ويوجد على يمين المدخل تابوت الولي الصالح سيدي توائي المصنوع من الخشب، استعملت فيه تقنية الخراط والتعشيق وتكسوه عدة إزارات، ويحتمل جدا بأن هذا التابوت من عصر قريب، ويستبعد أن يكون من العصر الحمادي، أي في أواخر القرن 5هـ/11م (صورة 4).

يتخلل جدران الضريح فئحات استعملت للإضاءة والتهوية، ونرجح بأن معظمها أصليا، لكن تعرض لبعض الترميم بمواد حديثة في الوقت الحالي، وكل هذه الفئحات تساهم في تلطيف الجو داخل الضريح في الواجهة الشرقية نصفها مفتوح، ونصفها العلوي مسدود يعلوها عقد منبسط، كما توجد في الواجهة الجنوبية فئحة على شكل خزانة جدارية تستعمل لوضع حاجيات الضريح كالمصاحف والكتب الدينية والشموع.

أما بالنسبة للقبة فهي ترتكز على مربع انتقل فيه إلى المثلث عن طريق حنايا ركنية بخوفة وبسيطة، ويرتكز على المثلث الغطاء نصف الكروي للقبة وهو بسيط أملس من الداخل لا يحتوي لا على زخارف ولا على كتابات.

أما عن العناصر المعمارية في الضريح فلا بد من الإشارة في البداية إلى أن الضريح بسيط جدا في عمارته، ولذلك لا نجد تعدد العناصر المعمارية، فكل ما نجده هو عنصر القبة والعقود.

لقد أصبحت القبة شائعة الاستعمال على الأضرحة والزوايا في المغرب الإسلامي خاصة عند التونسيين الذين يعتبرونها من ملحقات الزوايا، إذ لا يمكنهم تصور قبة إن لم يكن تحتها ضريح ولي صالح⁽³⁰⁾. أما القبة المستعملة في ضريح سيدي توائي،

فهي القبة نصف كروية الملساء بسيطة في عمارتها ولا تحتوي على زخارف. أما الحنايا الركنية فيها فهي على هيئة مثلثات مقلوبة الرأس نحو الأسفل، وهذا لتحويل مسقط القبة من مربع إلى مثلث.

أما عن العقود، فهي ناقصة جدا في الضريح، لأن السقف يعتمد على الأعمدة في رفعه، فكل ما نجده في الواجهة الرئيسية، هي وجود ثلاثة عقود مدببة، وهذا النوع من العقود انتشر في العمارة الإسلامية في جميع الأقطار، ونجد أمثلة له في الجزائر، في كل من المسجد الجامع بتقرت، ومسجد صالح باي بعنابة.

ضريح سيدي محمد أمقران:

الموقع:

يقع ضريح سيدي محمد أمقران في هضبة مرتفعة خارج باب اللوز ولا يبعد كثيرا عن ضريح سيدي محمد تواتي، ويقع في وسط أكوام من الأشجار، ويظهر كأنه حارس للمدينة.

أما بالنسبة للشخصية صاحبة الضريح، فيرجع تاريخها إلى العصر العثماني، وبالضبط بعد تحرير بجاية من الإسبان، ودخول صالح رايس لها سنة 1555م، حيث حاولوا ربط علاقات مع عدة شخصيات دينية في البلاد معروفة بنفوذها وتأثيرها من بينها شخصية سيدي محمد أمقران الذي كان له تأثير في المناطق الواقعة بين بجاية وجيجل.

ينتسب سيدي محمد أمقران إلى عائلة المقرانيين بقلعة بني عباس حوالي نهاية القرن 16م بعد اغتياله من طرف أحد أتباعه.

تربى سيدي محمد أمقران بقرية "إمعدان" في قبيلة بني مسعود وكان له قدرة عالية ومكانة بين سكان هذه القرية. ولما دخل العثمانيون بجاية خصه رئيسهم باحترام خاص ومنحه امتيازات تليق به، ثم طلبوا منه الانتقال إلى بجاية تاركا زاويته التي أسسها في بني مسعود بقرية (أمعدان)⁽³¹⁾.

الوصف المعماري:

يأخذ الضريح شكلا مربعا ورغم ما لحق به من زيادات خاصة في تسقيف الجزء الأمامي منه (الشكل 3). تتراوح أضلاعه ما بين (3.60م X 3.80م) وبذلك فهو يتربع على مساحة قدرها 13.69م². ويبلغ ارتفاعه نحو 4.20م، وما زال الضريح في حالة جيدة من الحفظ.

يتقدم الضريح مدخل يعلوه عقد نصف دائري محمول على عمودين يزينهما تاجان بسيطان باللون الأخضر الفاتح، وهو المحبب لدى العثمانيين (صورة 5). أما في الداخل فالضريح يحتوي على صحن مركزي تحيط به مجموعة من القبور، يحتل أن أصحابها كانوا من أقارب سيدي محمد أمقران. كما يحيط بالضريح غرفتان تحتويان على قبور، يحتل أن أصحابها كانوا من أقارب سيدي محمد أمقران، ثم يليه رواق مسقوف بسقف قرميدي يحتوي على قبور مستطيلة مغطاة ببلاطات خزفية.

أما عن غرفة الضريح، فهي مبلطة ببلاطات خزفية ذات لون أحمر داكن، وتوجد أربع حنايا ركنية تحمل بواسطتها القبة الملساء وهي شبيهة بقبة الجامع الجديد في الجزائر العاصمة من الفترة العثمانية (الصورة 6). وتوجد بالقبة أربع فتحات لكنها سدت وبقيت واحدة فقط. لتساعد على دخول الهواء والنور. أما التابوت فيتوسط قاعة الضريح (الصورة 7) وشكله مستطيل من الخشب، يحتوي على زخرفة نفذت بطريقة التعشيق الخرق، وفي أركان التابوت أربع أعمدة من النحاس، كل واحد منها يحمل كرة صغيرة يعلوه هلال في وسطه نجمة شعار الدولة العثمانية وهذه الظاهرة موجودة أيضا على الواجهة الرئيسية للضريح (الشكل 4)، كما أن التابوت محلي بإزارات ثمينة تحمل زخارف نباتية منفذة بخيط الذهب والفضة.

ومن العناصر المعمارية الجديرة بالملاحظة في هذا الضريح، نسجل القبة ذات النوع النصف دائري مستعملة بكثرة في العمارة العثمانية بالجزائر، أما العقود فهي

ذات شكل نصف دائري، وهي موضوعة مباشرة على الأعمدة وعددها قليل جدا. أما عن التيجان، فيوجد إثنان فقط يكتنفان مدخل الباب الرئيسي ويحملان عقدا نصف دائري.

ضريح سيدي عبد الرحمن الصباغ:

الموقع:

يقع الضريح في أعالي المرتفعات غير بعيد عن جامع سيدي والي أحد الأولياء الصالحين ببجاية. أما عن سيدي عبد الرحمن الصباغ فيعرف عند أهل المدينة باسم سيدي "عبد الرحمن بوالبيلة" نسبة إلى صخرة كبيرة يجنب الضريح منحوتة بدقة كبيرة تستعمل لتخزين المياه (الصورة 8). وسيدي عبد الرحمن الصباغ هو الذي شرح الوغليسة لسيدي عبد الرحمن الوغليسي وقد شرح البردة أيضا، وقد قام برثاء ابن مرزوق التلمساني عند موته بقصيدة عظيمة وشهد له أيضا بالعلم الظاهر والباطن، وأن له كرامات عظيمة وشهد له بذلك أيضا بحر الولاية والعلم سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه. وقد ذكر الورثاني في رحلته بأن تأليفه تنبأ عنه، وكلامه يدل عليه، فليس إلا من أهل الشأن والتصريف وهو من القرن بهـ (32).

الوصف المعماري:

الضريح من الخارج بسيط جدا في عمارته، فهو يتجلى في شكل غرفة صغيرة مغطاة بالقرميد، وسقفه مائل وذلك لتصريف مياه الأمطار حتى لا تؤدي إلى تآكل السقف (صورة 9) وواجهاته الأربعة الخارجية بسيطة وملساء ما عدا الواجهة الشرقية يظهر فيها من الخارج بروز كبير على شكل محراب. هذا بالإضافة إلى بعض الفتحات الصغيرة على واجهة الضريح وذلك لإدخال الضوء والتهوية.

أما من الداخل، فباب الضريح من الخشب تفتح إلى الداخل وذات مصراع واحد، ويبدو أنها حديثة (صورة 5). أما غرفة الضريح فتتقرب من الشكل المربع

غير منظم الأضلاع. تحتوي جدرانه الداخلية على فتحات منها المفتوحة وقد سبق الحديث عن وظيفتها، ومنها المسدودة التي تستعمل لوضع أدوات الضريح كالشموع والكتب وغيرها، وسقف الضريح من الداخل من مادة الخشب، والتابوت الذي يقع بمحاذاة الجدار الشرقي أيضا من الخشب ومغطى بقماش أخضر (صورة 11) وهنا لابد من الإشارة بأن الضريح رمزي فقط، لأن القبر الحقيقي موضوع تحت أرض الضريح، وكانت به مجموعة من القبور لكنها تحطمت مع مر الوقت، وكان لهذه القبور مجموعة من الشواهد المكتوبة بخط مغربي، وهذا حسب الروايات الشفوية، وفي حالة صحة هذا الكلام، فإن ضياع هذه الشواهد المكتوبة يعتبر حلقة مفقودة في تاريخ بجاية الإسلامي، أما عن تبليط الضريح فهو حديث كما تشير الروايات المتداولة في المنطقة.

ومن الملاحظات العامة حول الضريح أن بجانبه من الخارج آثار مباني من الآجر نجعل وظائفها، واستعملت فيها التقنية المعروفة في البناء لدى الحمادين والموحدين (صورة 12)، ومن الملاحظات أيضا أن الضريح بسيط في تخطيطه ولا يوجد فيه أي تعقيد (شكل 5)، ولا يوجد من العناصر المعمارية شيء يذكر، فلا القبة المعروفة في عامة الأضرحة، ولا العقود والأعمدة التي تعمل على رفع السقف، ما عدا بعض الفتحات الداخلية (شكل 6)، وهنا نطرح سؤالاً هل كان للضريح قبة ثم تحطمت، أم بني أصلاً بالصورة التي نراها عليه اليوم؟

سيدي أبي علي: (المعروف بسيدي بوعلي):

يذكر الغريبي عن الشيخ أبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي أنه شيخ فقيه فاضل، عالم، عابد، محقق ومتقن، محصل ومجتهد، وأنه كان يسمى أبا حامد الصغير حيث جمع بين العلم والعمل والورع، وبين علمي الظاهر والباطن. ومن مؤلفاته: "التذكرة في أصول علوم الدين" و"النبراس في الرد على منكر المقياس"، وكتاب في علم التذكير سماه: "التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ

والغايات". وسلك في هذا الكتاب مسلك أبي حامد في كتاب الأحياء، وبه سمي أبا حامد الصغير. وكان يتردد على الجامع الأعظم ببجاية في الثلث الأخير من الليل للتهجد. ولي القضاء في الفترة التي هجم بنو غانية على بجاية سنة 581هـ.

ويوجد قبر سيدي أبي علي بباب أمسيون بالمقبرة التي تقابل الخارج من الباب، والدعاء عنده مستجاب، وهو مجهول في قبور هنالك ثلاثة أو أربعة لا يعلم أيها هو من بينها، لكن المتبرك يترك بجميعها ليوافق المقصود منها، وهذه القبور ما زالت موجودة لحد الآن، ولقد سمحت لنا الزيارة الميدانية التي قمنا بها إلى بجاية بالوقوف عليها ومعاينتها عن قرب. وبني إلى جانبها غرفة صغيرة حديثة مربعة الشكل مغطاة بالقرميد ومبلطة ببلاط حديث (صورة 13) نسبوها إلى سيدي أبي علي، هي اليوم مزار للتبرك وإشعال الشموع (صورة 14)⁽³³⁾. ويذكر الورتيلاني في رحلته بأن سيدي أبي علي عاش في أواخر القرن 6هـ أي الموافق للقرن 12م.

ضريح سيدي عيسى:

نسب الضريح إلى شخصية دينية عاشت في بجاية في العهد الإسلامي، وهو يقع في مكان مرتفع بعيدا عن المدينة، ويشرف على خليج زيقواط، وموقعه له منظر رائع وهادئ يترك أكبر الأثر في النفس، ولكل من يزوره، ولعله المكان الذي كان يتعبد فيه سيدي عيسى. وبالإضافة إلى قاعة الضريح توجد قاعتان أخريتان مبلطتان للزوار، وأرضيتهما مبلطة باسمنت حديث، وتستعملان أيام الزيارة كخلوة للسهر وإقامة حفلات. والضريح قد تعرض لبعض التغييرات حيث أعادت بناء امرأة كانت مريضة راجية الله أن يشفيها من مرضها عند قيامها بهذا العمل، والملاحظ أيضا أن الضريح قديما كان يشرف على حي الأندلسيين الذي ما زالت بعض آثار المباني والآبار تظهر في هذا الحي (صورة 15).

أما من الداخل، فالضريح مدخله من الشرق، وغرفته مربعة تحتوي على فتحات على شكل مزاغل بالإضافة إلى بعض الفتحات المربعة. وسقفه من الداخل معمول من الخشب المائل وهو حديث، بينما من الخارج فالضريح مسقف بالقرميد. أما مكان القبر فيوجد على يسار المدخل مباشرة، وهو قليل الارتفاع عن الأرض، وخال من الثابوت الخشبي، أما يمين المدخل فتوجد مساحة مرتفعة قليلا عن الأرض تخصص لوضع الشموع، أما في الركن الشمالي الغربي من الضريح فتوجد باب مغلقة يعلوها نافذة مربعة للتهوية ترتفع عن الأرضية (الشكل 7).

ومن الملاحظات العامة حول الضريح أن شكله مربع غير منتظم الأضلاع، وتنعدم فيه القبة، والعناصر المعمارية ما عدا بعض الفتحات للإضاءة والتهوية، ولنا أن نتساءل عن الضريح وكيف كان شكله المعماري قبل إعادة بنائه؟



الهوامش

- 1- Gsell (S) ; atlas archéologique de l'Algérie. F n° 7 P12 , Paris, Alger 1902-1911.
- 2- الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ص160- الجزائر 1983.
- * يحمل في الخرائط الفرنسية اسم le cap noir.
- * le cap bouac
- * le cap carbon
- 3- الغبريني (أحمد أبو العباس)، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض- دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.
- لبنان 1979. ص
- 4- idris (HL) ; la berbérie orientale sous les zirides. Paris 1962. P.P : 267-270.
- 5- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. قسم المغرب العربي. تحقيق محمد الحاج صادق. باريس 1983م.
- 6- المراكشي، (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب.
- تحقيق سعيد العريان، القاهرة 1963م، ص164.
- 7- الغبريني، عنوان الدراية... ص 69- 82. الجزائر 1971م.
- 8- البلسني، (محمد العبدري)، الرحلة المغربية. تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية دت. ص 23-24.
- 9- مصطفى، (رشيد)، تاريخ بجاية- مجلة الأصالة- السنة الأولى.
- العدد الأول- مارس 1971م- ص90.
- 10- ابن خلدون، (عبد الرحمن)، كتاب العبر... ج 6، ص363، لبنان 1959م.
- 11- الغبريني، مصدر سابق، ص 07.
- 12- نفسه، ص 07.
- 13- wintzer (P), Bougie Place forte espagnole. Alger 1932. PP. 213-220.
- 14- gaid (M) ; histoire de Bejaia et sa région. SNED. Alger 1976. PP. 115-123.
- 15- feraud (ch) ; Histoire de bougie. In. revue Africaine. Année 1858. 1859. OPU.Alger. 1985. PP. 45-46-275-276.

- 16- ابن منظور(المصري)، لسان العرب - المجلد 11 دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت 1955م وص 526.
- 17- عبد الجواد (توفيق)، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية. ج3- المطبعة الحديثة، القاهرة، 1972، ص 74.
- 18- DIEZ ERNEST ; l'Art de l'islam. Petite bibliothèque payot. Paris. S.D.P. 57.
- 19- صالح لمعي (مصطفى)، القباب في العمارة الإسلامية، بيروت، دت، ص 23.
- 20- عبد الجواد توفيق، مرجع سابق، ص 32.
- 21- محمد ماهر سعاد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. ج.1. ص 40.
- 22-d'occident. Marçais (G) ; l'Architecture musulmane Arts et métiers Graphiques. Paris 1954. P.300.
- 23-Ibid.P. 300.
- 24 - CAUVET (C) les Marabouts ; petits monuments funéraires et votifs du nord de l'Afrique.in. revue Africaine. Paris.1923.PP. 22-23
- 25- Ibid.P.23.
- 26- Marçais (G), op. cit. P.300.
- 27- إسماعيل (العربي)، دولة بني حماد، ملوك القلعة وبجاية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1980م، ص 192.
- 28- Feraud (ch), op. cit. P.271.
- 29- بوروبية (رشيد)، بجاية. سلسلة فن وثقافة. قسنطينة، ص 56-57.
- 30- زيبس سليمان، القباب التونسية في تطورها- المعهد القومي. للآثار والفنون، تونس 1959، ص 06.
- 31- Feraud (ch), op.cit. PP.278-280.
- * يذكر الورثلائي في رحلته أنه عاش في أواخر القرن 10هـ وأخذ من الحادي عشر 11هـ.
- 32- الورثلائي، الرحلة... ص 8-27.
- 33- الغريبي، عنوان الدراية... الجزائر 1970م. ص 66-69.
- 34- الورثلائي، الرحلة... ص 26.

'ملحق الأشكال والصور'


